المحاضرة الثالثة: نشأة المسرح العربي (2): نقل المسرح الغربي إلى الثقافة العربية وتطوره

1.المسرح عند الغرب:

يعد السومريون والبابليون ثم المصريون أسبق الأمم إلى فن المسرحية، وعن هؤلاء أخذ اليونانيون المسرح وطوروه، فالمسرحية التي تطورت اليوم إلى هذا الفن الراقي المسمى "أب الفنون" تعود جذوره إلى المسرحيات اليونانية القديمة وأول سجل يدل على مسرح إغريقي يعود إلى حوالي 532 قبل الميلاد.

نشأت المسرحية اليونانية بنوعيها الملهاة والمأساة من احتفالات دينيه وثنيه كانت تقام في أثينا خلال موسم الحصاد تمجيدا لإله الطبيعة والنماء "ديونيسوس" وما يتصل بهذه العبارة من أساطير ومعتقدات. ومن أشهر كتاب المسرحية اليونانية: "إيسخيلوس Aescylus الذي يعد أب المأساة اليونانية، و"سوفوكليس" Sophocles صاحب مأساة "أوديب الملك"، و"ويوريبيدس" Euripides صاحب مسرحية "سايكلوبس" Cyclopes، و"أريستوفان" Aristophanes صاحب ملهاة الضفادع، والزنانير، والغيوم.

2. المسرح عند العرب:

إن العناية بالمسرح بمعناه الفني لم تظهر في الأدب العربي إلا في العصر الحديث، وبالتحديد حين اتصل العرب بالحضارة الغربية عبر حملة نابليون على مصر في أواخر القرن 18 وأوائل القرن 19، ولما غادر نابليون ورجاله مصر كان قد وضع اللبنات الأولى للمسرح الحديث في العالم العربي، وقد ظهرت تلك العناية جلية في عصر الخديوي إسماعيل (1830-1895) الذي كان مغرما بتقليد الحياة الأوروبية، فافتتح "المسرح الكوميدي" سنه 1869 موازاة مع احتفال تدشين قناة السويس، ثم أنشأ "مسرح الأوبرا" في العام نفسه، ومثّل فيه جماعة من الممثلين الذين جلبهم من أوروبا، ثم شيّد بعد ذلك "مسرح الأزبكية" وأخذ يشجع الممثلين ويمنحهم المنح والإعانات ويحضر تمثيلهم، وفي عهده برزت نواة المسرح العربي على يد بعض الفرق المصرية والسورية.

وأول من أدخل الفن المسرحي إلى البلاد العربية هو مارون النقاش (1817- 1855) الذي اقتبسه من إيطاليا التي سافر إليها سنه 1841، وابتدأ التمثيل بالغه العربية الدارجة وكانت أول المسرحيات التي قدمها لجمهوره العربي في بيروت هي مسرحية "البخيل" المعربة عن موليير في أواخر 1847، ثم قدم روايته الثانية "أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد" سنة 1849، وكانت أخر مسرحية له هي "الحسود السليط" في سنه 1852.

أما في مصر فأول مسرح عربي أنشأ بها هو ذلك الذي قام به يعقوب ابن صنوع (1839- 1912) بالقاهرة في سنة 1872 وقد اقتبسه كذلك من إيطاليا، وقد مثل في خلال سنتين عاشهما مسرحه، اثنتين وثلاثين مسرحية ما بين مقتبس وموضوع، وتغلب على مسرحياته اللغة العامية، وقد تدعم المسرح العربي بقدوم سليم النقاش من لبنان إلى مصر في أواخر سنة 1872 تصحبه فرقة تمثيلية ونصوص مسرحيات عمه "مارون النقاش"، كما ترجم عدة مسرحيات غربية.

ومن الذين عنوا بالمسرح والترجمة له مُحَمَّد عثمان جلال (1829- 1898)، وكان ينقل من الفرنسية ويضفي على مسرحياته روحا مصرية خالصة، وكانت لغته عامية، ومن ذلك روايات موليير التي أسماها "الأربع روايات من نخب التياترات"

ومنها رواية "ترتوف" وسماها "الشيخ متلوف"، وكما نقل إلى العربي بعض مسرحيات "راسين" وسماها "الروايات المفيدة في علم التراجيدة"، كما ألف مسرحية باللغة العامية عن الخدم والمخدومين، وتعد باكورة الروايات المؤلفة في المسرح العربي.

ولقد انتقل المسرح العربي إلى طور جديد بقدوم أحمد أبو خليل القباني وفرقته المسرحية من دمشق إلى مصر سنه 1884، لأن المسرح العربي ظل إلى أن جاء القباني معتمدا على المسرحيات الأجنبية المعربة، فلما جاء القباني اتجه نحو التاريخ العربي الإسلامي فاستلهم منه مسرحيات: "عنترة" و"ناكر الجميل" و"هارون الرشيد" وأنس الجليس" وغيرها، وقد امتاز أسلوبه في تلك المسرحيات بأنه كان أرقى لغة وأقرب إلى العربية الفصيحة، وقد استعمل فيها السجع والشعر معا. ومن الذين شاركوا في هذه النهضة المسرحية وهذا الاتجاه نحو التاريخ العربي الإسلامي، مصطفى كامل حين ألف روايته "فتح الأندلس" سنه 1892، وعلى هذا النمط ألفت عدة مسرحيات في تلك الحقبة مثل مسرحية "حسن الوفاء، والظهور بعد الخفاء" لحامد الصدر و"عجائب الأقدار" لمحمود واصف و"الحب الوجداني" لمحمد منتصر و"ابن زيدون وولادة" لإبراهيم الطرابلسي.

ينتقل المسرح العربي بعد هذا الطور إلى طور آخر، وهو المسرحية الاجتماعية، وقد هيئ لها المؤلف الجديد والممثل الممتاز، وهذا بمجيء الممثل "جورج أبيض" (1880-1959) وولوجه العالم المسرحي العربي بعد عودته من باريس سنة 1910، بعد أن درس فيها أصول التمثيل على يد أساتذة أكفاء، وحين ألف "فرح أنطوان" روايته "مصر الجديدة ومصر القديمة" ومثلها جورج أبيض سنة 1913، ثم توالت المسرحيات الجيدة التي تتجه صوب المشكلات الاجتماعية، ولقد ترجمت لهذا النوع من المسرح خير المسرحيات الغربية، فترجم الشاعر خليل مطران مسرحيات شكسبير الخالدة: "عطيل"، "ماكبث"، "هاملت"و "تاجر البندقية". كما ترجمت مسرحيات "موليير" ترجمة جيدة.

يمكن القول بالنظر إلى كل ما سبق، إن الأدب المسرحي العربي قد ابتدأ مقتبسا من آداب الغرب يقتبس كل شيء يصلح للتمثيل لا تهمه مدرسه بعينها، فينقل عن المدرسة التقليدية تارة والإبداعية تارة أخرى، والواقعية تارة أخرى، ولما أخذ الكتاب يتجهون إلى وضع المسرحيات، كانت وجهتهم أول الأمر واقعية مستمدة من روح المجتمع العربي وأحواله ومشكلاته، ثم عاد المسرح إلى الأخذ عن التاريخ الإسلامي والعربي والأدب، وإن لم يغفل في الآن نفسه وضع مسرحيات تعالج المشكلات الاجتماعية، ثم جاء توفيق الحكيم وجمع بين المثالية والواقعية والتجريد والتحليل، بينما نرى الشعر لدى شوقي وعزيز أباظة ومحمود غنيم، وبكثير وغيرهم يتجهون بالمسرح في الأعم الأغلب وجهة تاريخية.

.3نشأة المسرحية الجزائرية:

يجمع العديد من النقاد أن الجزائر، بخاصة والبلدان العربية بعامة، لم تعرف الفن المس رحي بمفهومه الحديث إلا في الربع الأول من القرن العشرين، غير أن لفيفا من النقاد سعى إلى تأكيد تغلغل هذا الفن في الجزائر مستدلين على ذلك بأدلة كثيرة نذكر منها:

-وجود هياكل عمرانية تعود إلى العهد الروماني وتتوزع على مدن كثيرة منها :شرشال- قالمة- جميلة- أمداوروش – تيمقاد-

-وجود أشكال فرج وية شعبية قديمة، حيث تتميز الجزائر بمظاهر فرجة شعبية متميزة سواء على مستوى ممارسات الطقوس الدينية، أو الاجتماعية في الأعراس والمناسبات المختلفة، وتشمل أنواعا متعددة من الرقص الفلكلوري، والألعاب الشعبية، وتختلف هذه العناصر في امتدادها في الشمال الإفريقي، كما تختلف في الجماعات العربية عن نظيرتها الأمازيغية.

-كما عرفت الجزائر فنون الفرجة الشعبية الأخرى التي شاعت في مختلف البلدان العربية مثل القارقوز وخيال الظل والمداح والقوال وغيرها من الأشكال التراثية التي تتوفر على عنصر الفرجة .ويعد فن القاراقوز أقدم هذه الأشكال التراثية وأكثرها تأثيرا في العامة وليس خيال الظل إلا امتداد له،كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين، ولم يكن فن القارقوز لمجرد المتعة والتسلية، بل كان له دور كبير في نقد الواقع الاجتماعي والسياسي بأسلوب ساخر، وبطريقة إيحائية.

وإذا كانت هذه الأشكال في الجزائر وغيرها من البلدان العربية مجرد ممارسات شعبية تقترب من الممارسة المسرحية إلى حد ما، فإن أول محاولة جادة يمكن الاعتداد بها في التأريخ للكتابة المسرحية في بلادنا تعود إلى سنة 1847 م، وترتبط بميلاد أول نص مسرحي مكتوب باللغة العربية وهو "نزهة المشتاق وغصّة العشاق في مدينة الطرياق في العراق " لـ"أبراهام دانينوس" [1798-1872] وهي مسرحية غرامية اتخذت من العشق موضوعا لها، وقد اعتمد الكاتب فيها على أسلوب الموشحات، ولغتها تتراوح بين الفصحى والعامية، وجاءت الأشعار على أنماط ونسق أشعار ألف ليلة وليلة، وعلى الرغم من بساطة قصة هذا النص، ووضوح فكرته، وسهولة لغته، إلا أنه عد مسرحية رائدة في باب المسرحيات العربية، ولم تؤلف قبلها سوى البخيل لمارون النقاش، وربما تكون"نزهة المشتاق "سابقة لـ"البخيل".

وعلى الرغم مما سبق، فإن الثابت وفق معظم من أرّخ للمسرح الجزائري هو أن الولادة الفعلية للمسرح الجزائري قد كانت بعرض فرقة "الزاهية" لمسرحية "جحا" للمسرحي المتميز "سلالي علي" المعروف بكنية "علالو" وذلك يوم 12- 04- 1926 بقاعة "الكورسال" بباب الوادي، أمام حوالي 1500 متفرج.